الفصل الثالث

مصر والمصريون ووادى النيل

ومصر كالكرم ذي الإحسان فاكهة لحاضرين وأكواب لبادينا

" شوقى "

لا يذكر اسم مصر في أي محفل من المحافل ، أو مجتمع من المجتمعات ، أو منبر من المنابر ، الا وتشرئب الأعناق ، وترفع الرؤوس ، وتصيخ الأسماع ، لتعرف ما يدور عن مصر . ولمصر تاريخ حافل منذ القدم جعلها تبدو أسطورة العالم حديثه وقديمه . وبنيت فيها آثار ضخمة ظلت تتحدى الزمان . وبقيت ليعرف الناس فى مختلف العصور روعة حضارتها ، وتقدم علومها . ومصر ، وربما وادى النيل حتى بلاد النوبة ، بالإضافة إلى بلاد ما بين النهرين تعتبر أم الحضارات . ويرى المؤرخون جميعا أن المدنية والحضارة إنما انبثقت من أراضى الهلال الخصيب التى تجمع أرض الفراتين وسوريا وبقية الشام الكبير ومصر والنوبة . ويرون أن في هذه البقعة تفتقت الحضارة والمدنية ، وازدهرت الحياة بكل ما من شأنه أن يجعل الحياة فوق سطح الأرض آمنة ميسرة المعيشة . ويؤكد المؤرخون بأنه فى أرض وادى النيل بدأ إنتاج الطعام بصورة مكثفة منتظمة ، وأن الناس فى هذا الوادى

عرفوا الزراعة بعد أن تخطوا فترات الصيد والرعي ، وأنهم هم الذين علموا غيرهم من الناس فى أوقات مختلفة طرق الزراعة وتوفير الطعام وتأمين الأقوات للسكان .

وكان أهم نتائج هذه المرحلة في تاريخ الإنسان أن ازداد عدد السكان وتضاعف مما أدى إلى زيادة الأيدي العاملة ، وتوزيع الاختصاصات ، وتنوع الحرف ، وبداية المدنية . وبظهور الزراعة واحترافها قلت الممارسات الأخرى كالصيد والرعي وجمع الطعام ، وأصبح تأمين الغذاء حرفة رئيسية لكثير من الناس ، فكان أن تقدم الشرق الأوسط على كثير غيره من المناطق في العالم ، وتكشف ذلك في مصر والنوبة ، وذلك في حوالي سنة ٨٥٠٠ قبل الميلاد . ومن هذا الموقع في الشرق الأوسط أخذت المدنية تنتقل شيئا فشيئا نحو الشرق حتى تصل إلى الصين ، كما أخذت تعبر البحار والأراضي لتدخل أوربا وتتنقل فيها لتغطي أجزاء كبيرة منها . وكانت تجارة الحبوب والطعام من أهم أنواع التجارة التي مارسها الإنسان منذ عصور الحضارة الأولى . وقد ساعدت فيضانات النيل عاما بعد عام على ري الأراضي الواقعة فوق الضفتين ، ونتج عن ذلك فائض في المحاصيل الزراعية ساعدت السكان على حملها إلى مناطق أخرى للاتجار فيها ، ونقل أساليبها لكي يتبعها الآخرون ، فتزدهر الحياة بمزيد من الغذاء والكساء والرفاهية .

وكان من أهم اختراعات المصريين المحراث الذي ساعد كثيرا على إعداد الأرض للزراعة عن طريق استخدام الحيوان كالجاموس والبقر ، ونتج عن ذلك المزيد من الرقعة المزروعة بالمواد الغذائية ، والحصول على فائض من ذلك ، وأدى هذا إلى ظهور التجارة ، والسعي وراء الكسب للحصول على

المواد التي لم تكن في متناول اليد ، ثم إلى ظهور الحكومات التي أخذت تفرض الضرائب ، وتبني المعابد والقصور ، وتزين هذه وتلك بمختلف أنواع الزينة ، وتطيبها بمختلف أنواع الطيب والعطور ، فانتعشت الحياة ليس في مصر فحسب ، ولكن في كثير من مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط . وكان لتطور أساليب الحياة في مصر أن أخذ الناس من سكان البلاد المجاورة ينظرون إليها دائما على أنها الأرض التى يستطيع أن يعيش فيها المرء دون أن يخشى من عوادي الدهر ومجاعاته .

أدى توفر الغذاء في وادي النيل إلى أن يصبح هذ الموقع مركزا تجاريا هاما مع كافة جيرانه من البلاد المحيطة به ، ومن بينها شبه الجزيرة العربية . وقد ثبت لدى الباحثين بأن الصلات بين ضفتي البحر الأحمر كانت قوية وحميمة منذ فجر التاريخ ، وأن سكان الضفتين كانوا إلى حد كبير من أعراق ذات قربى ببعضها بعضا ، وأن المعبر بين الشاطئين كان معبرا سهلا للغاية ([4]) وهذا يشمل كافة الساحل الشرقي والغربي أي أنه يشمل الجزيرة العربية بأكملها من ناحية ، ومن ناحية أخرى الأراضي المصرية والسودانية والارترية والحبشية .

أما الذين قادوا هذه الاتصالات فهم التجار دون شك ، فقد كانت تجارة العطور والصمغ و العاج والذهب تجارة رائجة بين الجزيرة العربية والمراسي أو المرافئ المصرية والسودانية والإرترية . وسكن الناس في هذه المرافئ ، خاصة أولئك التجار العرب ، فامتلأت بهم السواحل الإفريقية ، وأخذوا في نقل سلعهم حتى وصلوا بها الى ضفاف النيل وقراه ومدنه . وكان وادي

---

[4] اليوت سمث : المصريون القدماء ص ٧٨

الحمامات الذي يجري من النيل إلى البحر الأحمر في مصر هو الطريق التجاري الرئيسي ، وعن هذا الطريق يقول البروفسور إليوت سمث :

((من الأسانيد التي نحتت على الصخور في ذلك الطريق الذي يربط بين مصر والبحر الأحمر كانت هناك حركة نقل تجارية في عهد ا لأسرة الخامسة المصرية . ولكن هذا الطريق كان طريقا بديهيا ظاهرا بأنه طريق تجاري من النيل إلى البحر الأحمر مما يجعلنا على يقين من أنه كان طريقا تجاريا منذ عهود ما قبل الأسر المصرية ، أو أنه على الأقل كان دربا يلتقي فيه العرب وقدماء المصريين .وفي جوانبه كانوا يختلطون ويمتزجون . ومما يؤكد هذا اللقاء وهذا الاختلاط تلك الأصداف المحمولة من شواطئ البحر الأحمر ، والتي وضعت على قبور موتى عهود ما قبل الأسر في صعيد مصر وبلاد النوبة . وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على حقيقة ذلك الاختلاط ، وأنه لبرهان قاطع على صحة ذلك الامتزاج في تلك العهود السحيقة))٥

ويمضي ماكمايكل ليذكر لنا بأن المصريين الفاتحين الذين كانوا يعبدون هورس إنما كانوا في واقع الأمر عربا دخلوا إلى إفريقيا عن طريق مصوع . وعندما أخذ بروفسور نافيل NAVILE في العرض لهذه الفكرة وصياغتها وتطويرها فإنه نقل عن أقوال جوبا JUBA كلمات سجلها بلاينى PLINY يذكر فيها بان المصريين إنما هم من أصل عربي كما أضاف بأنه أما عن جيرانهم الذين على النيل من سيناء إلى مَروِي فإنهم ليسوا بشعوب إثيوبية ولكنهم عرب . وحتى معبد الشمس الذى لا يبعد عن ممفيس يقال بأنه أقامه العرب .وليس ذلك فحسب ، ولكن يعتقد بأن أعدادا كبيرة من العرب قد نزحوا من الجزيرة العربية وعبروا إلى شواطىء إرتريا واستقروا

هناك ، ثم أخذوا فى الرحيل من هناك فـى محاذاة[1] الشواطىء السودانية على البحر الأحمر حتى بلغوا الأراضى المصرية اليانعة ، فاستقروا فيها . ولم تكن هذه الهجرات هي الهجرات الأولى والأخيرة التى قام بها العرب واستقروا بعدها فى إفريقيا اذ المعروف أنه فى القرن الثانى قبل الميلاد رحلت جماعات كبيرة أيضا من جنوب غربى الجزيرة العربية إلى الأراضى السودانية والارترية والحبشة وكان ذلك قد بلغ الذروة فى عهد مملكة معين بين سنة (١٥٠٠ - ٣٠٠) قبل الميلاد . فالهجرات العربية إلى إفريقيا لم تنقطع فى جنوبي البحر الأحمر على مدى العهود القديمة .

ولم تكن هجرات العرب من شبه الجزيرة العربية إلى مصر والسودان عن طريق الجنوب فحسب لأنه كانت مصر فى تلك العصور سلة غذاء العالم القديم ، كما كانت الجزيرة العربية تفيض بالسكان من وقت لآخر ، وتعانى من الجدب أحيانا أخرى ، فكان لا بد من أن تسير الجماعات والأفراد إلى مصر عن طريق سيناء . يقول محمد عبد القادر محمد [2] " بأن أول فوج من الساميين أمكن التحقق من وجوده فى مصر كان فى عهد نقادة الثانية فى مصر العليا . ويعتقد أن فى بداية هذا العصر جاء أقوام أجانب إلى وادى النيل كتجار مسالمين ، ثم أغرتهم ثروات البلاد وإمكانياتها التطورية على اتخاذها موطنا لهم . وإليهم يعزى العنصر السامى القوي فى اللغة المصرية

ثم ينتقل هذا الأستاذ إلى الحديث عن مصر آخر للسامية فى مصر فيشير إلى أن كلا من فلسطين وسيناء كانتا مراكز التقاء بين مصر والعرب بفضل التجارة التى كانت مزدهرة فى ما قبل التاريخ . وكان دليله على ذلك

٢ما كمايل ص ٤

٣مصادر تاريخ الجزيرة العربية جامعة الرياض (الملك سعو د) الجزء الاول .

ما وجد من (مكاشط مروحية مصنوعة من الصوان ، والأوانى الفخارية ذات المقابض المموجة التى أثبتت الأبحاث أنها مصرية دلتاوية) مما يدل على وجود اتصال بين مصر وهذه البلاد [1] ويخلص الأستاذ محمد عبد القادر من حديثه ذاك بأن الحضارة المصرية حضارة عربية .

وعندما تعرض هذا الباحث الى العصور التاريخية أوضح خصائص اللغات السامية ثم أبان أن اللغة المصرية القديمة إنما تنتمى فى الواقع إلى مجموعة اللغات السامية ، واستدل على بعض العلماء فى هذا المجال منهم جاردنر الإنجليزى و و. ج لافيفر الفرنسى و ف . كاليس الألمانى وثاكر الانجليزى ودكتور عبد المحسن بكير المصرى .وأوضح أن اللغة المصرية القديمة واللغة العربية تتفقان فى أشياء أهمها توقف بنية الكلمة على الحروف الساكنة فحسب مثل سجم" سمع " وان بعض اللواحق الصرفية واحدة فى اللغتين مثل حرف التاء للتأنيث مثل " سن " بمعنى أخ " وسنت " بمعنى أخت ، ووجود صيغة المثنى فى كلتا اللغتين، وتقدم الفعل على فاعله ، والتشابه بين كثير من الألفاظ واشتقاقاتها ٤ .[٣٢]

هكذا نجد أن كثيرا من العلماء أسهموا فى تأكيد عروبة قدماء المصريين ، وأنهم والشعب العربى ينتمون إلى عنصر واحد ، وأن تدفق القبائل العربية إلى وادى النيل منذ أقدم العصور كان أمرا مألوفا . واهتم الباحثون أيضا بإيجاد ارتباطات بين قدماء المصريين والعرب وبعض سكان السودان عن طريق دراسة الجماجم والهياكل ومدى اتفاق بعضها ببعض

---

٤ المصدر السابق ص ١٥

٥نفس المصدر ص ٢٤ ومما لا شك فيه ان البحث شيق ومفيد

وتماثل أبعادها. وقد قام البروفسور سلجمان بهذه الأبحاث ، فوجد التماثل الكبير بين هياكل وعظام أبناء قبيلة بنى عامر خاصة (وبقية قبائل البجة عامة) بهياكل وجماجم قدماء المصريين ، وأثبتت الصلة القوية المتماثلة بينهما (١).[١٤] ولهذا فقد أصبح لامجال للشك فى سامية كل من البجة وقدماء المصرين والعرب . ومن المرجع أن هذه الصلات القديمة كانت على مدى الأيام تقرب بين سكان هذه الأركان الثلاثة مصر والسودان والجزيرة العربية إضافة إلى إرتريا التى ظلت حتى القرن الماضى امتدادا للأراضي السودانية .ويذكرنا التاريخ بالقوافل التى كانت تسير من مصوع حتى عيذاب بالقرب من حلايب الحالية ، كما يذكرنا بالسفن التى كانت تبحر فى البحر الأحمر من مصوع (باضع) حتى عيذاب أيضا ، ومن هناك تنقل البضائع والقرنفل والبهارات إلى قوص حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط إلى أوربا .

ازدادت الروابط بين مصر وسوريا فى عهود تاريخ الأسر ، وتوسعت الإمبراطورية المصرية فى سوريا الكبرى ردحا من الزمن ، مما كان له أثر كبير فى نزوح بعض الجماعات العربية من شمالي الجزيرة العربية إلى مصر . وهناك كثير من الظن حول أصل الهكسوس فمن قائل بأنهم من البدو الساميين ، ومن قائل بأنهم من الحيثيين HITTITES الذين وفدوا إلى مصر من آسيا الصغرى ، ومن قائل بأنهم من الليبيين . غير أن كثيرا من الباحثين يميل إلى أنهم من بدو العرب الذين غزوا مصر ، مما يشير إلى أنهم كانوا موجة سامية دخلت الأراضى المصرية واستقرت فيها ردحا من الزمن . وهناك من يميل

---

٦ ارجع للحديث عن البجة فى هذا السفر

من الباحثين إلى القول بأن العرب الخالية انتقلت منها جماعات كبيرة أيضا إلى مصر والسودان عبر البحر الأحمر وأنهم انتشروا من إرتريا إلى الأراضى المصرية حيث انتظمت جماعات منها وأنشأت حكومات للفراعنة .

لقد كانت مصر مقرا للساميين واستمرت فى تاريخها ملجأ للوافدين واللاجئين الساميين من عرب ويهود ، وقد وجد سيدنا يوسف وأهله فيها عيشا رغدا كما كان فيها سيدنا موسى نبيا ارسل إلى فرعون وهامان ومن معهما . وكان كل هؤلاء من أبناء سيدنا إبراهيم الذى نزح من أرض الفراتين حوالى سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد ليسكن فى مكة المكرمة . كل هذه صلات قوية بين شبه الجزيرة العربية ووادي النيل مصره وسودانه .

ومما يسترعى الانتباه فى القرآن الكريم تلك السور التى ذكرت فيها مصر ونزوح الأنبياء عليهم السلام إليها ، وماكان من أمر عزيز مصر وزوجته ، وفرعون موسى وطغيانه . وإن هذه القصص التى تروى فيه توحى إلى المرء بأن العرب كانوا على صلة نوعا ما بهذه القصص ، وأنها كررت فى القرآن الكريم تذكرة لهم لكى يعتبروا بما حدث للأقدمين . ونجد أن المفسرين يذكرون بأن فرعون موسى كان يدعى بالوليد بن مصعب مما يشير أيضا إلى أصله العربي . وسواء أكان ذلك هو اسمه أم كان اسما مصريا قديما فإن ورود أخبار هؤلاء الفراعنة يدل على أن لهم صلة قوية بالعرب فى العصور القديمة .

من كل هذه الأحداث التى نذكرها ، والحقائق التى نوردها ، يبدو لنا أن الروابط التاريخية بين شبه الجزيرة العربية ووادى النيل من مصر والسودان إنما هى روابط حية فى الأصل والجنس ، وأن ما حدث بعد ذلك أيضا من اختلاط وتمازج إنما هو تأكيد بأن التاريخ يعيد نفسه.